والمطلع على هذا التفسير يرى مبلغ ما بذله القرطبى فيه من جهد، وقدرة على البحث، وإلمام بأصول علوم الشريعة وفروعها من لغة وأدب وبلاغة، ويظهر ذلك فى استنباطاته للأحكام الشرعية من نصوص الآيات الكريمة، حتى ليكاد يسد مسدّ كتب الفقه، كذلك ما يلحظ فى استشهاده بكثير من النصوص الأدبية، من لغة العرب شعرها ونثرها.

وإن كان قد اشترط على نفسه فى مقدمة كتابه ما يلى:

«أضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لابد منه، ولا غنى عنه للتبيين».

وقد لاحظ مصحح الكتاب - بحق - أن القرطبى خالف منهجه هذا فى بعض المواضع، وذلك فى أمثلة يذكرها، هى نقلة عن كعب الأحبار فيما يتصل بإبليس، وحديثه مع الحوت الذى يحمل الأرض، وأمثال ذلك مما يتصل بالرعد، وكلب أصحاب الكهف فى لونه واسمه، إذ يأخذ عليه مصحح الكتاب - بحق - أنه فى ذلك جارى من سبقه من المفسرين الذين ينقلون عن الإسرائيليات ولا يتحرون الدقة فى المعلومات الكونية، ويلتمس له عذراً فى ذلك فى أنه تابع ثقافة عصره السائدة آنذاك، وطرق المؤلفين المتبعة وقتها.

ومن الحق أن نذكر لمصحح هذا التفسير، وإن شئنا قلنا: لمحققه أحمد عبد العليم البردونى، أن نذكر له تعليقاته وهوامشه السديدة الدقيقة المعينة على الفهم، على الرغم من أنه لم يصدر صفحة الغلاف باسمه كما يصنع سائر المحققين فى زماننا.

وقد صنع القرطبى مقدمة لتفسيره تصدرت الجزء الأول، وهى مقدمة طويلة ضافية وافية تتبين فيها بلاغة القرآن الكريم وفصاحته، وما فيه من أحكام ومواعظ وقصص وأمثال وقص للغيب من الأخبار ثم يقول: «ولما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع الذى استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض ورأيت أن أشتغل به مدى عمرى، وأستفرغ فيه منّتى (أى قوتى) بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا، يتضمن نكتا من التفسير واللغات والإعراب والقراءات والرد على أهل التوبيخ والضلالات وأحاديث كثيرة شاهدة لما تذكره من الأحكام ونزول